حارسات الحياة

حياة امرأتين: نموذجيتين؟ عاديتين؟

نازك سابا يارد

حين اختارت اللجنة المسؤولة عن هذا العدد من كتاب "باحثات" حيوات النساء موضوعاً له، فكرت في امرأتين لبنانيتين بين اللواتي أعرفهن، متقاربتين في السن، أرملتين، ولكن من عالمين مختلفين كل الاختلاف، الواحدة أعرفها منذ سنوات، والأخرى تعرفت إليها مؤخراً. وخطر لي: هل واجهتا عقبات لأنهما نساء، على الرغم من اختلاف البيئة والظروف؟ أم بسببها؟ ما هذه العقبات؟ كيف جابهتا ما واجهتا؟ هل كان بين الحياتين، ومن ثمّ بين المرأتين أوجه شبه، على الرغم من الاختلاف بين حياتيهما وظروفهما؟ دفعتني هذه التساؤلات إلى إجراء مقابلات كثيرة مع كل منهما، وخلال عدد من الجلسات سردتا أحداث حياتيهما، تطوّرها، بيّنتا تعقيداتها، وكيف اختبرتاها وفهمتاها. أجريت مقابلتي الأولى مع صاحبة المكتبة في دكانها، والمقابلات الأخرى في منزلها الذي دعتني إليه. أما طبيبة الأسنان ففي عيادتها حين تكون قد انتهت من معالجة الزبائن.١

أنتِ أميّة!

دخلت عليها في برمانا لأشتري مجلّة فرنسية. تردّدت لحظة وهي تنظر إلى وقافة الصحف الأجنبية، ثم قالت لي:

– لا أقرأ الفرنسية ولا الإنكليزية، حتى العربية تعلمتها وحدي. رفض والدي إرسالي إلى المدرسة.

فسحبت المجلّة التي أريدها، دفعت ثمنها وخرجت. إلا أن كلامها ظل عالقاً في ذهني: صاحبة مكتبة لم ترسل إلى المدرسة، تعلمت القراءة وحدها؟!

ظلت قصة صاحبة المكتبة هذه تشغلني، فذهبت استوضحها تفاصيل حياتها. رفضت أن أسجل كلامها، لأن أولادها سيتألمون، سيهانون. حاولت أن أقنعها بأنني سأكتب ما أسجل وأتلف الشريط، ثم إنني لن أذكر اسمها، ولا مكان إقامتها. وأضفت: "لو كنتُ مكان أولادك لافتخرت بأن تكوني أمي، بأن تكوني حققت كل ما حققت." ولكن، عبثاً. هل ترددت في الحديث لأنها لا تريد أن تخجل أولادها؟ ربما. إلا أنني أظن أن هناك سبباً آخر لعلها لم تعِه، فصوت المرأة لم يسمع خلال قرون، ولذلك احتاجت الآن إلى تشجيع خاص لتتكلم. في النهاية قالت لي:

–أكتبي ما أسرد عليك الآن. كأنني أخبرك بصفتك صديقة تسألني.

وبدأت تقص. أجابت أحياناً عن أسئلة أطرحها، ولكن في معظم الأحيان تدفق كلامها من غير أن أسأل، وكأن مرجلاً من المياه الغالية أزيل غطاؤه ففاض كل ما كان مضغوطاً فيه. وإذ بي أستمع إلى حياة امرأة جسدت، على ما أظن، حيوات آلاف النساء في بلدنا.

ولدت عام ١٩٣٦، وبدأت تعمل منذ الثامنة من عمرها. في أول الأمر كانت "تنمّش" البرتقال والليمون في بساتين أنطلياس قرب مسكن أهلها، ثم أصبحت عاملة صغيرة في معامل العسيلي للنسيج، تقبض ليرة لبنانية واحدة في النهار. وحين تنتقل العائلة إلى بيتها الصيفي في برمانا تنزل الفتاة سيراً على الأقدام إلى المعمل على الساحل، وتعود إلى بيتها مشياً أيضاً. كانت تعمل مع رفيقة أخرى في مثل سنها تقريباً، ولاحظت فتاتي الصغيرة أن رفيقتها تقبض ليرة وربعاً فيما تقبض هي ليرة واحدة فقط. وحين احتجت للمسؤول أجابها:

– رفيقتك تقرأ، أما أنت فأمية.

مع أن ذلك حزّ في نفسها رفضت الرضوخ، وطالبت بزيادة راتبها، أو بنقلها إلى قسم آخر في المعمل، كي تتخلص من سخرية رفيقتها التي كانت تعيّرها بدنو راتبها. فقرر المسؤول إبقاءها حيث هي مع زيادة الراتب. وأظن أن هذه الطفلة أتقنت عملها إلى حد أنه فضّل إضافة ربع ليرة إلى راتبها على الاستغناء عنها. طفلة في الثامنة، لم تعرف أن العمال يضربون ويتظاهرون لنيل حقوقهم، ولكن شعورها بعدم المساواة بينها وبين رفيقتها أعطاها شجاعة كافية لتطالب بحقها، وتناله.

وكان لهذا الحادث نتيجة أخرى إيجابية، أبعد تأثيراً في حياتها. أرسل والدها إخوتها الصبيان إلى المدرسة، أما هي فاعتبر أن لا حاجة إلى تعليمها لأن عليها أن تهتم بالبيت وبوالديها، وهي ابنتهما الوحيدة. وإذ كان قد حزّ في نفسها أن لا يساوى أجرها بأجر غيرها لأنها أمية قرّرت أن تعلم نفسها القراءة والكتابة. هنا سألتها كيف فعلت ذلك.

– حين كان إخوتي يعودون من المدرسة ويفتحون كتبهم ويقرأون درسهم بصوت عال، كنت أقف خلفهم أتبع بأذني ما يقولون وبعيني ما طبع في الكتب أمامهم. فتعلمت.

وعدت إليها في اليوم التالي لتتابع حديثها معي فقالت لي إنها أخبرت أولادها عن مقابلتي لها فلم يمانعوا أبداً من أن أذكر اسمها وأنشر ما تقص علي. فتابعت السيدة منى أبو فاضل قصتها.

ظلت تعمل في معمل العسيلي، تذهب إلى عملها وتعود إلى البيت، لا يسمح والدها بأن تخرج، بأن تعاشر أحداً، بأن تلهو كبقية البنات في سنها. أثناء كلامها لم تبدِ نقمة على هذا الوالد الظالم، فسألتها:

– ألم تنقمي عليه بسبب هذه المعاملة القاسية؟

وحين أحست بعينيّ لا تحيدان عنها منتظرتين الجواب، اعترفت بأنه كان يضربها، بأنها كانت تُعتبر خادمته وخادمة إخوتها الصبيان، وهي البنت الوحيدة في الأسرة، فلم يسمح لها بأن ترتاح أو حتى بأن تهنأ باللقمة التي تأكلها.

حين بلغت الخامسة عشرة من عمرها خطّبها والدها إلى شاب من "الجديدة"، وتركت المعمل. كان يعجبها شاب آخر، فطلبت من والدها أن يكون هذا خطيبها، إلا أنه رفض وأصر على خياره، مع أنه لم يعجب منى. ثم اتضح لها أن هذا الشاب قاس جداً إذ بدأ يفرض عليها مسبقاً شروط الزواج، كأن تخدم والديه وإخوته، أن لا تغادر البيت مطلقاً، فشعرت أنها ستنتقل من سجن والد تعرفه إلى سجن زوج لا تعرفه. ومن غير أن تجرؤ على مقاومة والدها وممانعة زواجها ممن اختاره لها لجأت إلى الحيلة، شأن الكثيرات غيرها ممن يشكل الاحتيال سلاحهن الوحيد. فبدأت تعمل على تنفير العريس. ترفض ما يطلب منها، تجيبه بوقاحة، تصر على ما ترى أو تريد، إلى أن فكّ الخطبة. فأخذت تساعد والديها في بقالتهما في برمانا حتى أصبحت في العشرين من عمرها. وذات يوم رآها شاب يعمل في الأمن العام فجاء إلى والدها يخطبها. لم يمانع الوالد بما أن الشاب ذو وظيفة ودخل مضمون، ومن أسرة معروفة، فقبل به، شرط أن تبقى منى قربهم لكي تستمر في خدمة الأسرة بالإضافة إلى خدمة عائلتها الجديدة، ورضي الشاب بذلك. لم يستشر الأب بنته، لم تكن منى قد رأت العريس أو كلمته. و"زفت المجهولة إلى المجهول" على حد قول ولي الدين يكن. هنا توقفت منى عن الكلام. وإذ لاحظت سؤالي الصامت استأنفت:

– لم أكن قد كلمت رجلاً غريباً في حياتي، فكيف لي أن أتعرى أمامه الآن؟ بدا لي أن زوجي تفّهم ذلك، فصبر عليّ ثلاثة أشهر، مع أن أهله كانوا يريدون أن يروا "نقطة الدم"، البرهان على بكارتي. إلى أن تعودت على وجوده، على مكالمته... ربما كانت هذه هي الحسنة الوحيدة فيه.

إلا أنها اكتشفت السبب بعد ذلك، وهو أن زوجها كان ذا علاقات بنساء كثيرات وكأن ذلك جعله يصبر عليها إذ نال مع غيرها ما يشبع شهوته، إذ لم يستغنِ عمن كان يعاشر من نساء أخريات. منى تطبخ وتغسل وتكوي وتنظف وتلد الطفل تلو الآخر (وضعت صبيين وثلاث بنات) وزوجها يبخل عليها بما يصرفه على عشيقاته أو على القمار. يغادر البيت أسابيع بكاملها أحياناً، وإن تجرأت وسألت أو طلبت منه بعض المال يكون الكف على وجهها هو الجواب السريع. سألتها لماذا لم تطلق زوجها، فأجابت:

– إلى أين تريدين أن أذهب؟ كان والدي بمثل قسوة زوجي، كثيراً ما كان يضربني هو أيضاً إذا ما تجرأت على مساءلته، أو رفض أوامره... ولكنه والدي.

وحين سألتها عما كانت تفعل حين تُضرب، كان جوابها البسيط:

– ماذا تريدين أن أفعل؟ أسكت وأتحمل. وإذا شكوت ضرب زوجي لي، ونادراً ما فعلت، كان يقال لي: هذا صليبك، عليك أن تتحمليه. فأتحمل.

إلى أن طفح معها الكيل، فقررت أن تعمل أي شيء لتؤمن لقمتها ولقمة أولادها. فطلبت من والدها أن يسمح لها بأن تساعده في الدكان وتساعد أمها في البيت، فقط مقابل أكلها وأكل أولادها. وبما أن زوجها لم يكن يأتي إلى البيت إلا نادراً، لم يفتقد وجودها. كان الجيران يشمون رائحة طبخها اللذيذ، فطبلوا أن تبيعهم مما تطبخ. فكانت تأخذ طلباتهم، تزيد الكميات، وتبيع. إلا أن والدها كان يستولي على كل ما يدفعون من مال، وظلت هي تقوم بأعمال البيت وبمزيد من الطبخ. خادمة مستعبدة، ومن غير أجر.

ثم كبر الأولاد، واحتاجت إلى ما يسدّ متطلبات مدرستهم، فأخذت تحوك الصوف في الليل، تنفذ أشغال "الإبرة"، تزرع قطعة الأرض الصغيرة أمام بيتها، وتبيع ما أنتجت يداها وأرضها. أو تلم أكياس الإسمنت الفارغة المرمية في الطريق، تنظفها، تسوّيها، وتبيعها. وربّت الدجاج في الحديقة الصغيرة أمام بيتها، فتبيع ما تبيض. "أقوم بأي عمل لكي أحصل على مال،" تقول لي. وحين أخذت تفكر في ترك زوجها إذ لم تعد تتحمل قسوته، أغراها والدها بالبقاء معه بأن أعطاها غرفة نصف مهدمة تجعلها دكاناً تبيع فيه ما تريد. كان لهذه الغرفة سقف فقط، ولكن لا باب ولا واجهة ولا ما يرد عنها مطر الشتاء والبرد في بلدتهم الجبلية.

ورأت أن الناس قد يستغنون عن كل شيء ما عدا الخبز. فاتفقت مع فران يسلمها كل صباح ربطات الخبز. تحمل هذه الربطات إلى خربتها، وتجلس فيها تبيع ما لديها من خبز، ثم أضافت إليها المناقيش. فأصبح لها زبائن دائمون تجذبهم إليها ابتسامتها العذبة في وجهها السموح، تلك الابتسامة التي جذبتني أنا أيضاً إليها حين دخلت دكانها للمرة الأولى. وحين كثر زبائنها أضافت الصحف إلى الخبز والمناقيش. وظلت تذخر ما تكسب حتى استطاعت أن ترمّم خربتها، تسدّ حيطانها، تثبت لها باباً ثم واجهة زجاجية، وتزودها ببعض الرفوف تصف عليها الصحف والمجلات. ولكي يزيد دخلها فكرت في تنويع بضاعتها، بعرض ألعاب للأولاد. وإذ لم يكن لديها مال كاف لشراء ما يملأ رفوفها، وضعت علباً فارغة بين علب الألعاب الملأى كي لا تصدّ الفجوات بينها عين المشتري. تذكرت ذلك وهي تبتسم، وأضافت:

– ولكن الناس أحبوني وساعدوني، فكانوا يشترون ما يجدون عندي، ووجدت من أمدني بالمال كي أزيد بضاعتي.

أما الحسابات فكانت تقوم بها في ذهنها: حساب ما عليها تسديده من ضرائب، من فوائد على ما تقترضه من الناس، من تحويل ما يدفع لها من دولارات إلى ليرات لبنانية، أو العكس. تحسب ذلك كله في لحظة. ولا تستطيع أن تخفي اعتزازها وهي تخبرني ذلك. لاحظت أن كلام منى فصّل جهودها للحصول على المال، وكرّر ما كانت تبذله في سبيل ذلك، فيما قلّ جداً كلامها عن أولادها، وعن دورها كأم، فلم تذكر لي شيئاً عن أولادها إلا بعد أن كبروا، وكيف أمنت لكل من الصبيين عملاً ومنزلاً، وزوجت بناتها الثلاث. فكأنها أحست أن ما تستطيع الاعتزاز به ليس دور الأمومة الذي لا يميزها عن غيرها، وإنما سعيها إلى الاستقلال الاقتصادي ونجاحها في أعمالها. ذلك، طبعاً، من غير أن تعرف شيئاً عن الحركة النسوية أو أن تكون قد سمعت بها.

– وزوجك؟ هل تغيرت تصرفاته؟

كان لا بدّ أن أسأل. فابتسمت بمرارة، سكتت لحظة ثم قالت:

– أخذني يوماً عند أهله، وكان قد أحضر معه إحدى عشيقاته. وحين طلبت أن يعيدني إلى بيتي، غادر معها وتركني في بيت أهله أتدبر أمري وحدي. ولكني نويت أن أتركه بمجرد أن يكبر أولادي.

إلا أنها لم تحب أن تتكلم عن هذا الزوج. حين ازدهرت تجارتها أضافت إلى دكانها غرفة في مثل مساحتها، حتي أصبح على الشكل الذي أعرفه اليوم. وكان همها الوحيد أن تعلم أولادها، ولا سيما بناتها، كي لا يحرمن مما حرمت هي منه. تابع ولداها علمهما في المدارس الرسمية، أما بناتها الثلاث فأدخلتهن مدرسة خاصة كي تؤمن لهن أفضل ما يمكن من العلم، تعويضاً عن عدم المساواة الجندرية التي كانت هي ضحيتها.

وإذ تكاثر زبائن دكانها وازداد دخلها بدأت تبني بيتاً على قطعة أرض كان والدها قد منحها إياها مقابل ما كانت قد ديّنته من مال اذخرته. تبيع أحد الناس ما تنتج أرضها من خضار، أو ما تكون قد حاكت من صوف، وتقبض مقابل ذلك كيس إسمنت، بعض الحديد أو الخشب. ثم زادت على البيت نصف طبقة سفلى وطبقة عليا. أجريت مقابلتيّ الثالثة والرابعة معها في بيتها وهي تدلني بفخر على ما أنجزت، وعلى الأثاث الذي تجدده كلما سنحت لها الفرصة.

وكبر الأولاد، فقرّرت أن تترك زوجها. إلا أنه أصيب بالعمى نتيجة ارتفاع السكري، فلم يسمح لها ضميرها بتركه، وأصبح مقعداً. تغيّر له ملابسه، تحمّمه، تطعمه، فوق ما كان عليها أن

تقوم به من أعمال منزلية، والسهر على دكانها. وحضرت والدته مدعية أنها تريد الاهتمام به، ولم تكن ألطف من ابنها، فتضاعف عمل منى، وكان عليها أن تتحمل قسوة الحماة بالإضافة إلى قسوة الزوج. و"زاد الطين بلة" أن أصيب والدها أيضاً بالعمى، فكان عليها أن تهتم بضريرين، وبأم أقعدها المرض وفقدت وعيها تسعة أشهر قبل أن تموت. أولم يرفض والدها إرسالها إلى المدرسة لتبقى قربه وتخدمه وزوجته؟! ونقلت والديها إلى بيتها كي تسهل عليها خدمتهما، فكانت تغسل أمها، تحفّضها، تطعمها إلى أن ماتت. وقد لفت نظري أنها لم تذكر شيئاً عن هذه الأم إلا في الأشهر الأخيرة من حياتها حين أقعدها المرض. وقد يكون السبب في ذلك أن قسوة الرجلين في حياتها طغت على كل ذكرياتها الأخرى من ماضيها؛ أو أن الأم كانت ظلاً لزوجها، تأتمر بأوامره، لا تدافع عن ابنتها الوحيدة، فلم تجد منى فيها ما يختلف عن زوجها أو ما يميّزها كأم. أما زوجها الضرير فلم يقلل من قسوته ولا تسمع منه سوى الشتائم، وظل يصر على المقامرة بأوراق "اللوتو" واليانصيب، وإذ ترفض هي أن تعطيه المال كان يشفق عليه ابنهما البكر الذي كان قد بدأ يعمل، ويعطيه.

– وأولادك الآخرون؟ سألت.

– لم يشعروا يوماً أن لهم أباً. كان يغيب عن البيت أشهراً بكاملها، وحين يعود يكون كالغريب، لا يكلمهم، لا يعطف عليهم، لم يقدم لهم يوماً هدية بمناسبة عيد.

بقيت هذه حالتها معه خلال سبع عشرة سنة. وإذ كان يتشاجر مع والدها الضرير نقلته إلى الطابق السفلي من بيتها، فيما ظل والدها في بيتها إلى أن مات. وأصرت أن يخرج الميت من بيتها هي، لا من بيت أحد إخوتها، أن تكرم حتى بعد موته من لم يكرمها ساعة في حياته. ومع ازدياد حاجة زوجها إلى العناية حين لم يعد يتمكن من ضبط بوله والبراز نقلته إلى غرفة كانت قد أضافتها خلف دكانها كي تخدمه من غير أن تنقطع عن مورد رزقها. فتنظفه، تغير ملابسه، تطعمه وتعيده إلى سريره. وقبل أن يموت ودّعها بقوله:

– ندمت على شيء واحد في حياتي: على أنني تزوجت امرأة أمية.

صعقت لدى سماعي ذلك، ولم تستطع منى أن تحبس الدمعة في عينها وهي تتذكر وداعه الأخير لها. أما أنا فانعقد لساني: انعقد إزاء نكران هذا الرجل كل ما قامت به زوجته لخدمته والسهر على بيته وأولاده، لتأمين عيشها وعيش أولادها، تغض النظر عن الإهانة اللاحقة بها نتيجة مغامراته النسائية وقسوته وفساد أخلاقه. لا تحاسبه، لا تعاتبه، لا تجافيه، وإنما وتنصرف إلى عمل منتج شريف ينسيها مأساتها، يخفف من عزلتها، يقوم بأود أولادها، وتخدمه حتى الرمق الأخير. فكان لا بدّ أن أسألها عن رأيها في الرجال، وفي الزواج.

– ماذا تنتظرين أن يكون رأيي في الرجال وأنا لم أرَ منهم سوى الاستغلال والقسوة والعنف، من الأب، أولاً، ثم من الزوج.

– وإخوتك؟ سألت.

– لم يكونوا أفضل، بل بالعكس. يأمرونني بخدمتهم منذ طفولتي. يجلسون ليأكلوا ولا أشاركهم. وحين أجلس بدوري لآكل ينادونني موبخين: "ألم تنهي أكلك بعد؟ ألا تشبعين؟! يلا، قومي! فأقوم وأنا لا أزال جائعة،" تقول والدمعة في عينها. "ومع أنني تزوجت، وترملت، إلا أنهم لا يزالون يتدخلون في كل شؤوني، لا يمكن أن يزورني أحد من غير أن يسألوا: من. وبما أنهم يسكنون حولي تبقى عيونهم تراقب كل حركاتي وسكناتي. لم يتح لي أن أعرف رجلاً لم يعذبني."

– هل جعلك ذلك تنقمين على الزواج؟

– أبداً. أرى أن الزواج ضروري، لإنجاب الأولاد. مهما كان الزواج تعيساً أرى أن البنت يجب أن تتزوج، أن يكون لها أولاد. فلولاهم لا يكون للحياة معنى.

وكأني بها ترفض أن تكون الشكوى آخر ما يتركه فيّ كلامها من انطباع، تضيف:

– توفي زوجي منذ أربع سنوات، فطلبت من والدته أن تعود إلى بيتها. لم أشعر أني فقدت أحداً بوفاته. والآن تزوج كل أولادي. تزوجت بناتي برضاهن، ومع أنني مانعت زواج الثالثة بسبب صغر سنها، إلا أنها أصرت، فنزلت عند رغبتها ولم أرد أن أكرر معها ما عشته أنا. واستطعت أن أؤمن لولديّ عملاً مستقلاً، أن أعطي أحدهما الشقة فوق شقتي، وأن أدفع للثاني ثمن شقة يشتريها. ولي دكان أجرته لبائع أزهار في برمانا. كل ذلك من تعبي أنا، من دخلي،

تقول باعتزاز.

– بقيت أقبض تقاعد زوجي بعد وفاته، ولكني أذخره في البنك، لا أمسه، أتركه لأولادي لعلهم يحتاجون إليه في المستقبل.

– وأنت؟

سألت.

– أنا؟ أنا بدأت أعيش بعد وفاة زوجي. بدأت حياتي منذ أربع سنوات. أنا سعيدة في دكاني، مع زبائني. سعيدة بأن أستطيع أن أخرج بحرية، أمشي في الحقول، أركب "البوسطة" إلى بيروت. وبما أن ابني الكبير يساعدني في الدكان أستطيع أن أتغيب أحياناً، فأنضم إلى رحلة تنظم إلى تركيا، إلى الأردن. سافرت وحدي إلى كندا حين كانت إحدى بناتي هناك، ولم أتردد أو أخف لأنني لا

أعرف اللغة... حين كنت بحاجة إلى مال، لم يكن لدي مال. والآن لديّ الكثير حين لم أعد بحاجة إليه.

تتكلم من غير أن تفارق الابتسامة وجهها السموح، سواء كانت تحدثني عن ماضيها الأليم أم عن حاضرها السعيد، عن حرمانها وعذابها أم عن سعيها ونجاحها.

والآن أفكر في أحاديث السيدة منى. على الرغم مما قاست من الرجال ومن قيم المجتمع وتقاليده البالية، فإنها استبطنت هذه التقاليد وتلك القيم. فها هي تخدم الأب والزوج الظالمين حتى الرمق الأخير، وترفض أن تخرج جثة والدها القاسي الظالم إلا من بيتها. وحين يضربانها تعزي نفسها بما يقول لها الأهل: "هذا صليبك!" فتسكت وتحمل هذا الصليب صامتة. ومع أنها هي التي ربت ابنيها وأمنت لهما بيتاً وعملاً، إلا أنها تهاب ما يقولان، ولم تسمح لي بنشر ما قالت إلا بعد أن وافق ولداها. وإذ تبرّر رفضها في بادئ الأمر بأنهما قد لا يريدان أن يعرف الناس ماضي أمهما أرى أن نقيضين يصطرعان في داخل هذه المرأة المميزة: إنها تعتز، من ناحية، بما أنجزته في حياتها على الرغم من قسوة ظروفها، ولكنها، من ناحية أخرى، تعير قيم المجتمع التقليدي أهمية. لم تلقَ من الذكور في حياتها غير العذاب، ولكنها استبطنت أهمية الذكر وضرورة الأخذ برأيه. وتشعر في لا وعيها ببعض الخجل من وضعها في الماضي. فحين سألتها هل يقربها شخص أعرفه من آل أبو فاضل في برمانا، أجابت أنها لا تريد أن تقرب أحداً. فأدركت أن وراء ذلك كرامتها التي ترفض الانتماء إلى من قد يعيّرها بماضيها الفقير. وعلى الرغم مما قاست من الزواج، تعتبر الزواج ضرورة، والإنجاب ما يعطي الحياة معنى، مع أن لحياتها هي معنى كبيراً بصرف النظر عن أولادها. فنظرتها إلى دور المرأة ووظيفتها هي النظرة التقليدية، مع أن الدور الذي لعبته هي في الحياة لم يكن تقليدياً على الإطلاق. ومظهر آخر لهذا التناقض في نفسها نجده في استسلامها، من جهة، لظلم الأب والزوج، على غرار غيرها من نساء مجتمعنا العاجزات المستسلمات لقدرهن، ولكن، على نقيض هؤلاء المسلّمات بقدرهن لا تسلّم منى أبو فاضل بكل ما قدّر لها، بل تقاوم وتبتكر وتعمل فتنتصر على هذا القدر. وهل يُنتظر أكثر من ذلك من فتاة جبلية نشأت أميّة، في بيئة بسيطة محافظة إلى أقصى الحدود، فحققت ما عجز عن تحقيقه من تمتع بكل ما حُرمت هي منه؟! إن الظروف التي واجهتها كان يمكن أن تجعل منها ضحية تثير الشفقة، إلا أنها ابتكرت لنفسها حلولاً جعلتها امرأة ناجحة تثير الإعجاب.

ألأني تزوجتُ أجنبياً؟

أما المرأة الثانية فلم تتردّد، مثل منى، في إطلاعي على سيرتها، بل بالعكس، أبدت حماسة في التجاوب معي، ربما لاعتيادها على الإجابة عن أسئلة كثيراً ما تطرح على مثيلاتها إذا ملأن استمارة، أو أجبن عمن يقوم بإحصاء أو مسح أو استفتاء أو غير ذلك في الأوساط الجامعية والمهنية. إلا أنها رفضت أن أذكر اسمها. ربما لأن أناساً كثيرين يعرفونها ولا تريد أن يعرفوا ما ستقول، مع أنها سكتت عن بعض الأمور ولم ترغب في أن أذكر بعضها الآخر. ولدت عام ١٩٣٣، وعلى نقيض منى أبو فاضل ولدت في أسرة أناس مثقفين: كان والدها طبيب أسنان معروفاً ووالدتها حفيدة أديب شهير. وبما أنها كانت البنت الأولى التي تولد في أسرة كلها صبيان رحبت الأسرة بها أيما ترحيب. أرسلها والداها إلى إحدى أرقى المدارس في حينها، ودفعا لها ولأختيها الاثنتين ثمن دروس في الرسم والرقص والموسيقى. هذا فضلاً عن تشجيع الوالد على الرياضة، فكان يسبح معهن في الصباح الباكر قبل توصيلهن إلى المدرسة. ولكي يوفقن بين دروسهن وهذه النشاطات دُرّبن، منذ طفولتهن، على النظام وتحمّل المسؤولية والاستقلالية، مما ساعدهن في حياتهن فيما بعد. تقول:

– باختصار، عشت طفولة سعيدة وجديّة، وبما أنني كنت الكبرى كانت مسؤولياتي أكثر من مسؤوليات إخوتي.

– إذاً، لم ينغص طفولتك شيء؟

سألتها وأنا أفكر في طفولة منى أبو فاضل. تردّدت لحظة كأنها لا تريد أن تجيب، أو كأنها تفكر في كيفية الإجابة، ثم قالت:

– كان أسهل عليّ أن أتفاهم مع والدي. كان عادلاً، لا يفرق بيننا. حتى حين ولد أخي بعد ثلاث بنات، لم يميزه عنا، لم يدلّله، بل بالعكس.

من موقف والدتها منها فهمت قضايا كثيرة كانت تثيرني في تصرفاتها. لأن والدتها أشعرتها منذ طفولتها بأنها هي المسؤولة، بأن عليها أن تتحمل، أن تسكت، أن تضحي، نشأت وكبرت وبلغت وهي لا تزال تتحمل وتسكت وتضحي. تحملت منى أبو فاضل وسكتت وضحت في ظروف مختلفة تماماً، أما هذه فلأن تربية والدتها لها أقنعتها بأن هذا واجبها بصفتها الأخت الكبرى، أصبح التحمل والسكوت والتضحية من أجل الآخرين طبعاً لازمها إلى اليوم.

أنهت دروسها الثانوية ونوت أن تتخصص في طب الأسنان.

– لأن والدك طبيب أسنان؟

– ربما كان لمهنة والدي أثر في ذلك، خاصة لأنني كنت أحبه كثيراً وأحترمه إلى أقصى حد. إلا أنني أحببت المهنة أيضاً. فحين كنت بين الأوائل في مباراة الدخول إلى كلية طب الأسنان،

اتصلت بي إدارة الجامعة وقالت لي إن علاماتي تؤهلني لدخول كلية الطب، وهذا اختصاص يتمناه كل طالب إذا كان باستطاعته الحصول على المعدل المطلوب. استشرت والدي، فقال لي بكل بساطة إن مرحلة الطب أطول، إن عليه أن يدفع أقساط ثلاثة إخوة بعدي، ففهمت أن من الأفضل القبول بطب الأسنان. لم يكن في كلية طب الأسنان سوى فتاة واحدة في السنة النهائية، ثم جئت أنا، وكنت البنت الوحيدة في صفي. وبقيت البنت الوحيدة في الكلية خلال سنتين قبل تخرجي.

– هل ضايقك ذلك؟ هل شعرت بعداء من قبل زملائك الصبيان؟

ابتسمت وهي تجيب:

– بعضهم كان أكبر مني سناً. هؤلاء كانوا يعطفون عليّ. أما الآخرون فكانوا يكايدونني، يخفون كتبي ودفاتري، مثلاً. ولكن الحسد كان يظهر حين تعلن نتائج الامتحانات فتفوق علاماتي علاماتهم. حينذاك كنت أشعر بالعداء الناجم عن إحساسهم بذكورة أهينت. إلا أن ذلك كله لم يسمّم العلاقة بيني وبينهم، فكان لي بينهم أصدقاء ما زالوا من أعز أصدقائي إلى اليوم.

وهنا أخبرتني أمراً بيّن لي أن البنت، حتى في هذه البيئة المنفتحة المتحررة، بقيت مقيدة. فمما كان يزعجها أن والدها لم يسمح لها بالذهاب إلى السينما، مثلاً، في رفقة زملائها في الجامعة إلا إذا كانت معها فتاة. فكان عليها أن تبحث في الخارج عن فتاة مستعدة لمرافقتهم، أو الاستغناء عن الخروج.

– والحب؟

كان لا بدّ أن أسأل. كان من المستحيل أن تعرف منى أبو فاضل الحب في الظروف التي عاشتها، أما صبية جميلة الوجه، ممشوقة القامة، بنت أسرة معروفة، وحيدة في جيش من الشبان، أفلم تحِب أوتحَب؟

– شعرت أن عدداً من زملائي حاول التقرب مني بدافع أقوى من مجرد الزمالة والصداقة. بعضهم لم أمل إليهم إطلاقاً، وواحد منهم كان يعجبني، إلا أني سمعت والدته تؤكد أن من تتزوج ابنها لا يمكن أن تعمل خارج البيت. فوضع ذلك حداً لعلاقتي به، فأنا لم أدرس طب الأسنان لأبقى بعد ذلك في البيت. ثم خطبت، إلا أن خطيبي سافر إلى الولايات المتحدة ليتخصص. حاولت أن أحصل على منحة كي ألحق به، دققت مختلف الأبواب، ولكن عبثاً. وحين ذهبت معه إلى المطار أودعه ورأيته يصعد سلم الطائرة، شعرت أن هذه تكون آخر مرة أراه فيها، وهكذا كان.

وبدأت تمارس مهنتها. وضحكت حين سألتها هل واجهت صعوبات أو عراقيل في مهنتها لأنها امرأة في زمن لم يكن في لبنان سوى ثلاث طبيبات أسنان. حين بدأت تمارس كانت عيادة

والدها في الشقة نفسها قرب عيادتها. وكونه طبيب أسنان معروف ساعدها في أول الأمر على إطلاق اسمها هي أيضاً. ولكن الأسرة كانت تصطاف في بكفيا، فكانا، هي ووالدها، يعالجان الزبائن في الصيف مرتين في الأسبوع في عيادة في بكفيا. في أول ممارستها المهنة تتذكر أن الناس كانوا يقرعون الجرس وحين تفتح الباب ويسألون هل الطبيب موجود وتجيب أنها هي الطبيبة كانوا يضحكون، غير مصدقين، مصرين على مقابلة الطبيب... وينصرفون. إلا أن الناس تعودوا مع الوقت على أن تعالج طبيبة أسنانهم، خاصة بعد أن أثبتت جدارتها، فلم تعد تواجه أية صعوبة. وكان بين زبائنها في بيروت شاب أجنبي، جيوفيزيائي يعمل مع شركة مكتبها الأساسي في بيروت. جذبها ذكاؤه الحاد، سرعة خاطره، خفة روحه وسعة ثقافته. فعرفت الحب الحقيقي وتزوجا.

– هل شكّل زواجك من أجنبي صعوبات؟

سكتت برهة، تفكر، ثم قالت:

– من عادة الرجال الأجانب أن يسهروا معاً في بعض الأحيان، لا ترافقهم زوجاتهم، يشربون ويلهون. وذلك لم يكن من العادات التي تعودت عليها في أسرتي أو بيئتي. كنت أرافقه قبل أن تولد ابنتي، ولكن بعد ذلك اضطررت إلى البقاء معها في البيت فيخرج ويسهر بدوني.

وحين سألتها هل آلمها ذلك كان جوابها البسيط شبيهاً بجواب منى أبو فاضل:

– لم يكن لي خيار آخر.

ولكن ما أزعجها أكثر من ذلك أن نسبة الضرائب التي كانت تدفعها كانت تفوق ما يدفع أبوها، مع أنهما كلاهما يمارسان المهنة نفسها. كانت حجة الدولة أنه رب عائلة، فأملت أن تخفف ضرائبها بعد زواجها وإنجابها إذ أصبحت هي أيضاً ربة عائلة. ولكن شيئاً من ذلك لم يحصل. بل أكثر من ذلك، حين وضعت طفلتها وانقطعت عن العمل لتهتم بها وترضعها، طالبها موظفو الضريبة بدفع ما يترتب عليها، غير مصدقين أنها انقطعت عن العمل بسبب الولادة. ولم ينفع معهم أن تقدم فواتير المستشفى والطبيب، فاضطرت في النهاية إلى اللجوء إلى الوساطة لكي تعفى من دفع ضرائب لم يكن عليها أن تدفعها. وتساءلت: هل يعني ذلك منع النساء من الإنجاب، وعرقلة معاملات من تنجب؟! وللمرة الأولى في حياتها شعرت بتمييز ضدها كامرأة، لم يكن تمييزاً من قبل المجتمع وعاداته كما في حالة منى أبو فاضل، وإنما من قبل الدولة وقوانينها المجحفة. حتى حين أقفلت الشركة التي كان يعمل فيها زوجها، وأصبح عاطلاً عن العمل وهي مورد رزقهم الوحيد، لم تُعفَ من بعض ما تدفع من ضرائب. أخذ زوجها يبحث عن عمل آخر، وأثناء ذلك تحملت عصبيته وازدياد شربه نتيجة شعوره بالإحباط. في النهاية وجد عملاً، واضطرّ إلى السفر للتدريب على وظيفته

الجديدة. لكنه لم يكد يستقر فيها حتى أصابه سرطان في القولون في شباط ١٩٧٤. أجريت له عملية، ظل في المستشفى ١٨ يوماً، تركض إلى المستشفى بمجرد أن تنهي عملها في العيادة، فتنام في غرفته لتلبي طلباته في الليل، إلى أن تعافى وعاد إلى عمله. ولكن ما لبث أن فرّخ السرطان ثانية في كانون الأول من السنة ذاتها فأدخل المستشفى مرة أخرى. تترك ابنتها عند والدتها لتركض إلى زوجها في فترة الظهر، وبعد إنهاء عملها في العيادة. نصحها الأطباء بإعادته إلى البيت إذ لم يبقَ أمل في شفائه. ولكنها رفضت لأنها لم ترد أن ترى ابنتهما الوحيدة عذاب والدها. خمسة وأربعين يوماً ظلت تشهد ما يعاني زوجها من آلام لا تطاق، يتحملها بشجاعة أدهشت الأطباء أنفسهم، إلى أن أراحه الموت. توفي في ١٩٧٥، وكانت ابنتهما الوحيدة في الثامنة من عمرها. فقدت زوجها واكتشفت أن الشركة لم تكن قد دفعت تأمينه الصحي، فاضطرت إلى تسديد كل فواتير المستشفى والعلاج. فقط حين أصبحت أرملة اعترفت الدولة بأنها ربة عائلة وخففت ما عليها أن تدفع من ضرائب.

والآن أصبحت الحارسة الوحيدة لطفلتها، وواجهت التمييز الثاني ضدها كامرأة، ولم يكن الأخير لسوء الحظ. بعد وفاة زوجها الأجنبي ذهبت لتنقل اسم ابنتها من جواز سفره إلى خانتها هي، فجوبهت بالرفض، إذ لم يكن يحق حينذاك لأرملة لبنانية متزوجة من أجنبي أن تمنح ابنتها جنسيتها. وصعقت حين قال لها الموظف إنه يحق لها ذلك لو كانت ابنتها مجهولة الوالد! ولن تنسى ما قالت لها إحدى موظفات الأمن العام، وكانت لا تزال في ملابس الحداد على زوجها: "من أين أتيت بهذه الطفلة؟ كيف نعرف أنها ابنتك؟!" وكأن إجحاف القوانين لم يكفِ فأضيف إليه الإهانة والإذلال، ومن قبل امرأة!! فحاولت أن تهاجر مع ابنتها حين بدأت السفارات الأجنبية ترحل رعاياها بعد أن احتدمت الحرب اللبنانية. ولكن السفارة قالت إنها لا تستطيع أن تؤمن لها شيئاً بعد ترحيلها لأنها لم تولد أجنبية وإنما اكتسبت الجنسية بزواجها من أجنبي. امرأة عالقة بين قوانين مجحفة لا لسبب إلا لأنها امرأة: لا تستطيع أن تستفيد من جنسيتها كلبنانية، ولا من جنسية زوجها الأجنبي. فظلت في بيروت، هاجسها أن تحرس حياة ابنتها. وقد كان فقدها زوجها، ثم الحرب اللبنانية التي اندلعت بعد ذلك مباشرة، بمثابة انفجار قضى على طمأنينة حياتها وعلى استقرارها المادي. فبدلاً من دخلين لم يبقَ لها سوى دخلها هي، وبسبب المعارك قلّ من استطاع الوصول إليها من الزبائن.

ثم كان عليها أن تجابه أسئلة ابنتها: لماذا كانت هي، دون صديقاتها، محرومة من أب؟ وحين تحثها أمها على المثابرة والاجتهاد في المدرسة لأن ذلك كان من رغبات والدها، أجابتها مرة:

– كفّي عن ذكر والدي ورغباته! فهل هو هنا حين أحتاج إليه؟!

كذلك حزّ في نفسها عجزها عن توفير كل ما كانت تطلبه ابنتها حين أصبحت مراهقة: صديقاتها في المدرسة يرتدين أجمل الملابس وأغلاها، وحين تطالب البنت والدتها بمثلها تفهمها، بقلب مكلوم، أن ليس بإمكانها شراء مثلها؛ تصعد صديقاتها مع الصف للتزلج على الثلج، وهي لا تستطيع أن تدفع الثمن وأن تشتري الملابس المناسبة لذلك. ثم أنهت الفتاة دراستها الثانوية بتفوق. قدمت طلبات لأهم الجامعات في الولايات المتحدة وقبلت فيها جميعاً، وحين أرادت الأم أن تتقدم بطلب منحة لابنتها من مؤسسة الحريري، قيل لها إن المؤسسة تمنح المنح للبنانيين وحدهم. فدخلت الفتاة الجامعة الأميركية في بيروت، واستدانت الأم قسط السنة الأولى. بسبب علاماتها الممتازة ويتمها نالت الفتاة بعد ذلك مساعدة مادية محدودة من الجامعة، وسدّدت الأم ما تبقى. وظلت الأم تسدّد الدين بعد أن تخرجت الفتاة.

حين قتل عميدان من عمداء الجامعة الأميركية في رأس بيروت عام ١٩٨٦ وأغلقت الجامعة أبوابها، حوّلت الفتاة إلى الفرع الذي كانت قد فتحته الجامعة في جونية مؤقتاً وكانت أمها تزورها في نهاية كل أسبوع، تركب البوسطة التي كانت الجامعة قد وضعتها تحت تصرف التلاميذ والأساتذة المضطرين إلى اجتياز "الحدود" بين "البيروتين". وذات يوم سبت من أيام تموز الحارة كانت الأم قد أخذت مكانها على مقعد بعيد عن النافذة. فحين صعد طالب في كلية الطب وتوجه إلى مقعدها قالت له إنها لا تريد أن تغير مكانها لأن الشمس تزعجها، فجلس هو قرب النافذة. ما كادت البوسطة تصل إلى آخر جسر البربير حتى أُطلق عليها الرصاص بغزارة من رشاش في سيارة أخرى، وأصيب الطالب الذي كان إلى جانبها إصابة قاتلة. لحظتها لم تفكر في أنها نجت من الموت، وإنما فكرت في ابنتها التي ستكون من غير أب وأم لو كانت أمها قد غيّرت مكانها. خلال أسابيع كانت توقظها كوابيس الحادث، ترى الشاب المقتول ودماءه التي لطخت ملابسها، ولكن همها الأول كان ابنتها التي شعرت أن العناية الإلهية وحدها لم تجعلها يتيمة الأب والأم معاً. فهذه الحادثة وعدم إصابتها أو إصابة ابنتها بمكروه خلال سنوات الحرب الطويلة زادها إيماناً بالعناية الإلهية، ومنحها سلاماً داخلياً ساعدها على مواجهة الصعوبات بهدوء وطمأنينة.

وهنا استوقفني الفرق الشاسع بين كلامها وكلام منى: في حين أن منى لم تكد تذكر شيئاً عن أولادها دار معظم كلام الطبيبة وهمها حول ابنتها. ولا أظن أن السبب في ذلك يتم البنت، فقد أوضحت منى أن زوجها كان غائباً تماماً بالنسبة لأولادها. ولكني أظن أن السبب عائد إلى الفرق بين البيئتين: فالاستقلال المادي والنجاح في العمل كانا نادرين بالنسبة لامرأة من بيئة منى، مما جعلها تعتبرهما أهم منجزاتها. أما بالنسبة لطبيبة أسنان من بيئة مدينية متعلمة فلم يشكل الاستقلال

المادي والنجاح المهني أمراً نادراً أو شاذاً، فيما كان التحدي الذي واجهته هو القيام وحدها بدور الأب والأم وربة المنزل بالإضافة إلى دورها المهني.

وحين سألتها كيف استطاعت أن توفق بين هذه الأدوار قالت: بكثير من الصعوبة. استعانت بمدبرة للأشغال المنزلية، وبمربية لابنتها قبل أن تصبح في سن المدرسة. كانت طفلتها تحب هذه المربية كثيراً، ولا تطلب والدتها إلا حين تكون مريضة. فينفطر قلب الأم وهي تسمع بكاء ابنتها تطلب منها البقاء معها حين تضطرّ إلى الذهاب إلى عيادتها، تعالج أسنان الأغراب ولا تستطيع أن تبقى لتعالج ابنتها المريضة.

تخرجت الفتاة، واشتغلت في لبنان سنة واحدة فقط إذ كانت تحتاج إلى إذن عمل، ثم سافرت إلى باريس حيث نالت وظيفة جيدة، وتعرفت إلى شاب فرنسي ممتاز، فتزوجا وأنجبت فتاتين رائعتين. إلا أن وظيفة أمها في الحراسة لم تنتهِ. كانت والدتها قد توفيت، وإخوتها الثلاث خارج لبنان، ولا مسؤول عن والدها المسن غيرها. في ١٩٨٦ انفجر شريانه الأورطي مسبباً نزيفاً داخلياً. استُبدل القسم المقطوع من الشريان، وظلت ابنته تنام معه في المستشفى مدة ١٢ يوماً، حتى عاد إلى البيت. بعد ذلك عام ١٩٩٢، كسر وركه فعادت معه إلى المستشفى، ولكي تخدمه في الليل كانت تنام عنده على مخدات تمدها على الأرض. تسعة أيام، إلى أن عاد إلى البيت يمشي مع "واكر" أو عكازتين. وذات ليلة كان والدها قد وضع عكازتيه جانباً ليعود إلى سريره، فانقطع التيار الكهربائي فجأة، فتعثر ووقع وكسر حوضه. ظلت معه في المستشفى شهراً كاملاً، وبما أنه كان قد تخطى التسعين، استحال إجراء عمليه لجبره، فأصبح مقعداً. فكانت تمرّ عليه كل صباح لتعطيه الأدوية، ثم تمرّ به بعد العيادة وتبقى معه تعشيه وتعطيه أدويته، ولا تغادر إلا بعد أن ينام. اعتنت بوالدها المريض هكذا أربع سنوات إلى أن توفاه الله عام ٢٠٠١. صحيح أن خادمة والدها كانت تساعدها، ولا كان هذا الوالد قد أساء معاملتها شأن والد منى، بل بالعكس، إلا أنها كانت مقيدة بمواعيد طعامه ودوائه ونومه، لا حياة خاصة لها ترفّه فيها عن نفسها بعد عناء عملها.

في أثناء ذلك أصدرت الدولة قانوناً يمنح غير اللبنانيين الجنسية إذا توفرت فيهم شروط استحقاقها، فاستدعت ابنتها من فرنسا، وتقدمتا بطلب منحها الجنسية. حضرت البنت عام ١٩٩٦ مع طفلتيها. قدمت المستندات المطلوبة، متعرضة مع أمها والطفلتين لكل ما يتعرض له المواطن اللبناني من سوء معاملة وسوء تنظيم، وأدرج اسمها في ملحق طالبي التجنيس من المسيحيين، ولكن المعاملة أوقفت، ولم تعرف السبب، وقفلت عائدة إلى فرنسا بخفي حنين. ولم تشجعها هذه التجربة

المرة على المجيء ثانية إلى لبنان، مسقط رأسها، فأصبح على الأم أن تغلق عيادتها لتسافر إلى فرنسا مرة في السنة لترى ابنتها الوحيدة وحفيدتيها.

امرأتان من بيئتين مختلفتين كل الاختلاف، ولم يترك اختلاف البيئة والتنشئة أثره فقط في مسار الحياتين، كما بيّناّ. إلا أنه ترك أثره أيضاً في ما آلت إليه الحياتان. فلأن منى أبو فاضل قضت حياتها في بلدة صغيرة بعيدة عن مآسي الحرب ومجازرها استطاعت أن تطور أعمالها تطويراً طبيعياً، وأن تذخر فوق ما يكفيها من مال. أما بنت المدينة فلم ينتج عن الحرب فقط الخوف وعدم الاستقرار، وإنما انخفاض دخلها أيضاً بهجرة الكثيرين من زبائنها أو تغيير مناطق سكنهم.

ولكن المرأتين تشابهتا أيضاً في أمور عدة. تشابهتا في شعورهما بالمسؤولية عن أسرتيهما، وبقيامهما بجرأة وشجاعة بما ألقي على عاتقهما من أعباء الحماية والعناية، غير مستسلمتين أمام الصعوبات التي اعترضت سبيلهما. وتشابهتا كذلك في صبرهما وتحمّلهما وقبولهما بما استحال تغييره من واقعهما. ودفعتا كلتاهما ثمن كونهما من النساء في مجتمعنا الذكوري. سواء كان السبب في ذلك تقاليد المجتمع المتخلف وقيمه وذهنيته البالية، أم قوانينه التي لا تزال تميز ضد المرأة على الرغم من كل الاتفاقيات الصادرة عن الأمم المتحدة. أما العقبات التي يضعها المجتمع فقد أثبتت منى أبو فاضل أن بإمكان المرأة أن تتغلب على بعضها، وإن ظلت مضطرة إلى الرضوخ لبعضها الآخر. أما قوانين الدولة فيستحيل أن يتغلب عليها إنسان بمفرده. ولكن على الرغم من إمكانية التغلب على بعض عادات المجتمع وذهنيته فقد اتضح أيضاً من موقف منى صعوبة أن يتخلص المرء كلياً من تأثير قيم المجتمع الذي نشأ فيه، ومن ذهنيته، مهما كانت هذه القيم والذهنية سبباً في عذابه. فالإنسان يستبطنها من غير أن يعي ذلك، وعليه قد لا تقلّ كثيراً سلطة المجتمع، المباشرة أو غير المباشرة، عن سلطة القانون.

فما خلصت إليه من هاتين السيرتين هو أن المرأة في نظامنا الذكوري تدفع دائماً ثمن كونها أنثى، مهما اختلفت ظروفها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية. ولكن لبعض نسائنا أيضاً من قوة الشخصية والشجاعة والإحساس بالمسؤولية ما يجعلهن يتغلبن إلى حد بعيد على هذا التمييز ضدهن، فيخرجن من معركتهن مع الحياة مرفوعات الرأس، منتصرات.